

ويستخدم نفس الكيمياء التي مرن عليها في مزج عناصر الكلمات عن طريق مراعاة النظر والطبقات الصوتية، فالوحشة بإزائها الأنس، والظلام بإزائه النهار والشمس، والغرس بإزائه الجنى أو القطف والثمرات والغرس. وكل ذلك يحكم تلاقي النغم في الإيقاع، بل امتزاجه وانسجابه انسجاً ما يبهر السمع والقلب والعقل. ويضيف ابن زيدون إلى ذلك مفاجأة في تصويره، فالتناس يفرسون ليجنوا الثمار الحلوة وقد تكون مرّة، أما هو فقد غرس أمانيه في الحب، وجنى منها ثمراً غريباً، هو الموت نفسه بصورته البشعة المنكرة، فهو يحيا ولكن حياة أشبه بالموت الزؤام. وكلما قرأنا في ديوان ابن زيدون لقيتنا تصويراته الطريفة وطبقاته الصوتية الكثيرة ورناته اللحنية المتكاملة التي تمسك الكلمات فيها بعضها ببعض مؤلفة أسراً متجانسة متلاحمة على نحو ما نرى في قوله:

ما للمُدام تديرها عَيْنَاكِ فِيمِيلُ فِي سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكِ
ولطالما اعتلَّ النسيمُ فِخْلَتَهُ شكواى رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شِكْوَاكِ
أَمَا مَنَى نَفْسِي فَأَنْتِ جَمِيعُهَا يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ مَنَّاكِ

والكلمات تتألف في البيت الأول فتفيض بنشوة موسيقية كنشوة ابن زيدون حين كانت تخدّر أعصابه عينا صاحبه وحين كان كل شيء فيها ينشر النشوة من حولها، ينشرها العطفان، وينشرها الصبا وتفتح الشباب الأرج. ويذكر أحاديثها الحلوة في البيت الثاني وما كان يتخللها أحيانا من شكواه وشكواها، شكوى ترقّ حتى لكأنها النسيم العليل الذي يملأ القلوب غبطة. ويصور في البيت الثالث كيف استأثرت صاحبه بكل ما يملك من حب وعاطفة، فهي جميع منى نفسه وإنه ليرتمى أن يكون بعض منهاها، فهذا كلّ أمله، وليس له أمل وراءه. وكلمات الأبيات تسيل عذوبة بما فيها من قرابة بين كلمات البيت الأول: كلمات المدام والسكر والعينين والعطفين والصبا، وكذلك بين كلمات البيت الثاني: كلمات اعتلال النسيم، ورقة الشكوى. وفي البيت تقابل واضح بين شكوى ابن زيدون وشكوى صاحبه، وبالمثل في البيت الثالث تقابل بين منى نفسه ومنى ولادة، وكل ذلك يجعل الكلمات في الأبيات تتجاذب رناتها الإيقاعية ويشد بعضها بعضاً في انسجام بديع.